لا يكون الفن فى جوهرة مشاركة وتواقتاً ؟

إن الحياة الخصبة الحافلة هى أولا وبالذات حياة اجتماعية؛ فأينما قتشت عن الحياة ، وجدت الإيثار والتضحية وبذل الذات والأنانية هى سلب للحياة نفسها، وإنكار لكل خصب وامتلاء؛ لذلك كانت الحياة الفائضة الطافحة ، هى تلك التى تمثل الوجود الحقيق .

وبعد هذا كله ليس فى وسعنا إلا أن يقول كل منا مع جويو : « أنا لست مالكا لنفسى ، فان كل موجود بدون الكل لاشىء ! » والإنسان لا يمكن أن يحيا أو يفكر أو يعمل ، إلا إذا كان ذلك للآخرين وبالآخرين ، ومع الآخرين !

(مصر الجديدة) زكريا ابراهيم

من الأدب القومي :

يوم ... ويوم ... !

للأستاذ شكرى فيصل

[إلى الذين يتساءلون : أين أنا ؟ ... إلى الذين عشت معهم ، فى غفلة الدنيا ، على مقاعد الجامعة ورحابها ...]

— ١ —

شهدتك ، أيها الخفاق ، تتعالى فوق الثكنات الكبرى التى تحتاط دمشق ... واكتحلت عيناى بالأمل المزدهر على نسمات الريح وخفقات القلوب ... واستمعت إلى حفيفك الناعم يقص حديث السنين الخوالى ... ولم تمالك عيناى ، أيها الخفاق ، أن تفترا عن الدمعات الندية التى لمحت من وراء غشائها الرقيق مراجل قصتك الدامية... لقد ذكرت فيصلا والملك ، والفرنسيين والهلك ، والصفحات الحلك السوداء التى جللت ثرى الوطن فاستعبرت ... والعبرات ، يا علمى ، العبرات التى كانت تنفر كالعزم الحديد فى عيون الآلاف المتحلقة من حواليك كل ما ملك الناس فى أصيل الرابع والعشرين من تموز

— ٢ —

وأين يوم من يوم ، أيها الخفاق ، منذ خمسة وعشرين عاماً

آب الناس إلى بيوتهم تقطعهم الحسرات : الشهادات على أفواههم ، والجراحات فى أجسادهم ، والدماء من خلفهم ومن بين أيديهم ، وملك فيصل النضير يجتاحه الغزاة العتاة كما تجتاح الزوبعة الروض الممرع ... واليوم ، بعد هذه السنين الطوال العجاف ، لا تظل البيوتات رجلا أو امرأة ، شاباً أو فتاة ... لقد خرج الناس تهزج لهم المنى ، وتغنى لهم الأحلام : الزغردات على أفواههم ، والعزمات ملء رودهم ، ومجد أمية من وراء العصور يتلألأ فى أذهانهم... ومضوا يملأون الطرقات إلى الثكنة العسكرية الكبرى ، إلى ثكنة « الحميدية » ، وانتشروا يتدفقون على عرض الدروب ، ويتدافعون على حافتى الشوارع ، ويتزاحمون على أطراف الأرصفة !

إنه يومك ، يا علمى ، كانت انتزعتك اليد الغاصبة لتحيل ألوانك ، وتخفت لمعانك ، وتمزق عروتك الوثقى ... ولكن من دمائنا بعض ألوانك ، يا علمى ، فقديناك ... ومن بريق أعيننا لمعانك خفقاتك ... وعلى عراك هذه الوثقى تآلفت قلوبنا والتقت أفئدتنا ... فكنت خفقتها التى لا تنى ، ونهضتها التى لا تفتر ، وعزمتها التى لا تكل !

— ٣ —

وحين وقفت هذه الجموع المؤلفة ، يا علمى ، كنا نحن ... هؤلاء الشباب المتفتحين على عبوس الأيام ، والمتقلبين فى كآبات الليالى ... نرمق ساريتك القائمة كالساعد الفتول ... إنها وحدها هى التى كانت قيد نواظرنا فلم تتحول عنها ... لم تأسرنا روعة المكان ، ولم تأخذنا ضخامة البنيان ، ولم تلهنا الآلاف المتدفقة ، فلقد استحال كل شىء فى نفوسنا بسمة تحييك ، وخفقة تناجيك ، وذكريات تواكبك ... وركزت أبصارنا فى شرفتك العريضة فى نظرات من الرجاء العريض ، والرغبات المستوفزة ، والأمل الوثاب ... ولم نعد نحن ... نحن الذين تعاورتهم السنون بالجدب ، وتعاهدتهم الحياة بالمصاعب ، وإنما رحبت بنا مطارح الأحلام ، وسمت بنا واسعات الأمانى ، وبدلنا دنيا بدنيا أخرى ... فشهدنا فى نشوة لذة الأطلال الخرائب جنة ممرعة ، والأسى الغالب فرحة عققة ، والأحزان المقيمة بهجة مونقة ... لقد تفتح لنا المستقبل عن وطن مهاب ، تملك ، أنت وحدك يا علمى ، أرفع ذراه ، وتتوسد أعلى رباه ، وتقف فى شم صخوره وشوامخه ، وتمر بك نسماته تضمخها بالمجد وتعطرها بالإباء ، وتبعث بها إلى هؤلاء

الذين يفتدونك طاهرة لم تلوثها خفقات غاصب ولا نفثات دخيل!

— ٤ —

وحين دخلنا ، يا علمى، باب الثكنة الكبرى ، كانت محاجرنا تفيض بالدموع ، ومن خلال ألقها الصافى كانت تنسحب الذكريات الحلوة المريرة : أولئك الذين استشهدوا على حفاق الوادى فى ميسلون ، وفى ثرى الغوطة فى دمشق ، وأرباض الجبل فى أرض بنى معروف ، ومعاقل الشمال فى حلب ... وهؤلاء الذين ذهب بهم الغدر فى الطرقات ، واستبد بهم اللؤم فى الشوارع ، وانتزعهم السلاح المعربد من فرشهم ... وجماعات وأفراد كانت السجون قبورهم ، والكهوف لحودهم ، والمنافى آخر عهدهم بالحياة ... وأمهات سبق إليهن الثكل ، وأطفال عدا عليهم اليتم ، وأسر باكرها الخراب ، وبيوت سطا عليها العذاب ... أولئك جميعاً كانوا كأنما تتمثل لنا مصارعهم فى سبيلك ، يا علمى ، فلا يبكينا الأسى ، ولا تنال منا الأحزان ، وإنما يبكينا أن تلفهم الأكفان الحمر قبل أن يشهدوا سناك الزاهى ، وجبهتك الناصعة ، ورفرفتك التى تحدث حديث المجد ، وتقص سيرة الكرامة ، وتروى نبأ الأبطال والبطولات !

— ٥ —

وفى الساحة الكبرى ، وقفنا نشهد — أيها الخفاق — ظفر الحق ، وانتصار العقيدة ... لطالما وقف فى هذه الساحة طغاة يرطنون ويعجمون ، ويصيحون ويصرخون ... لطالما جلدوا الأبرياء ، وأهانوا الأحرار ، ونكلوا بالمستضعفين ... لا النبل يهزهم ، فقد ذاب فى صدأ نفوسهم جوهر النبل . ولا الشرف يردعهم ، فقد ذهبت يد الظلم بحلية الشرف ... ولا المشاعر الإنسانية تختلج فى أفئدتهم ، فلم يبق فيهم أفئدة تختلج فيها مشاعر ، وإنما هى مغاور تنفث السم ، وتتلظى بالكيد ، وتتوسل بالانتقام ...

واليوم ، اليوم يا علمى ، تشهد الساحة الكبرى خلقاً آخر وحفلا جديداً ... إنها لا تحس وطء الأقدام ، ولا ثقل النفوس ، ولا حلكة الظلم ... إنها لا تجد زمجرة الانتقام ولا استطالة البغى ، وليس عليها الساعة أوداج تنتفخ بالغيظ ، وعروق تتغزر بالحقد ... إنها تذكر ماضيها ، وتدرك أنها تعود للشعب الخير ، والجماعة النبيلة ... إن رمالها تتراقص ، وإنها لتتغنى فرحة طروباً كأنما تغنى معها الريح أروع الأناشيد : أنشودة الأرض حين تظفر بأبنائها الطيبين ... !

— ٦ —

... لن أنسى ، يا علمى ، هذه اللحظات الخاطفة ، حين امتد الزمان ، فنطق دمشق : ربيبته التى علمته الخلود ، بالصمت الملذ الناعم ، ونشر عليها رداء من السكون الهادئ العميق ... ثم بعث فيها سوتاً واحداً ، فيه الحياة عريضة كريمة ، وفيه الأمل ريان مخضلا ، وفيه الفرحة قوية عميقة ... وأثار فى ذراها خفقة عنيفة نشيطة ، خفقت معها قلوب ، وعاشت معها نفوس ، وازدهرت بها أمانى ، ما كان أقربها إلى الذبول ... فأما الصوت فصوت البوق البشير ، وأما الخفقة فتجاوبك مع الريح ، يا علمى الحبيب!

والآن ... حين أمضى أيها الخفاق ، فى هذا الشارع النضر المتسع الرحاب ، فى طريق « كيوان » و « الربوة » تتسق بى الخطى مع طائفة من رجالنا المخضرمين ... إنهم شهدوا فى مثل هذا اليوم وهذه الساعة وهذا الطريق ، الجيوش المعتدية الظافرة تدخل دمشق دخول الجبارين ، فأغمضوا أعينهم على القذى ، وشدوا قلوبهم على الألم ، وانطووا فى نفوسهم على حرقة لاذعة !

واليوم ... اليوم تكتحل أعينهم بالموقف الخالد ، فيشهدون الفرق الوطنية الظافرة تحفظ على دمشق جبروتها وكرامتها وعزتها . إنهم ليستعبرون عبرة الفرح ، وتتفتح قلوبهم على شذى «الغبطة» وتعود إليهم نفوسهم راضية جذلة ...

يا ما أمتع حديثهم ، يا علمى ، إنه حديث الصبر المظفر ، والعقيدة المنتصرة !

* * *

لعينيك ، يا علمى ، لألوانك الزاهية ، ونجومك الزاهرة ، وبريقك الحلو ... هذه العزمات المتدفقة كهذا النهر ، النقية كهذه السماء ، الرائعة كهذا المساء !

إنك بضعة قلوبنا ، يا علمى ، فاخفق فى ذرى الوطن حارساً وأميناً . . ولتتحدث نسائمك إلى شهداء ميسلون تحمل لهم الحياة والفرحة ... !

(دمشق) **شكرى فيصل**

حاشية : هذا مقال كتبته وطويته ، وإنما اشعره مقال الأستاذ الطنطاوي فى العدد (٦٣٤) من الرسالة الغراء .